

ثانيا : إعادة طرح المفهوم - المشترك

المشترك الدينى - السياسى

لقد بدا واضحا أن فكرة القومية العربية (وبالتبعية القوميات أو الأقليات) ابتعدت فى الفترة الأخيرة عن التصدى للقوى المضادة لنا، ومن ثم، كان لابد أن ننتبه أكثر أن التصدى للغرب لا يكون إلا بالتنبيه لهويتنا القومية العربية التى تتلخص فى الوعى بالمصير والمشارك الثقافى.

لقد بدا واضحا أننا نستبدل أغنيات العرب والعروبة (بلاد العرب أوطانى من الشام لبغدادى) إلى نشيد آخر شدا به المتجهون من المشرق والمغرب إلى غزة، أو إنه - بشكل أكثر دقة - ضمن الأفكار القومية فى نشيد جديد يلفت إلى المصير الواحد الجغرافى والتاريخى فى آن واحد.

وعلى هذا النحو، يكون علينا هنا إعادة طرح المفهوم - الهوية - عبر شبكات المفاهيم السائدة وإعادة طرح مفاهيم صاعدة، فنمر عبر التعريف البسيط إلى التعريف المركب إلى الرمز الدال لنصل عبر إعادة الطرح الأخير للمفهوم - الهوية - حيث نلاحظ تطابق القريب مع البعيد أو المفهوم مع المجهول بشكل ما أو بتعبير هيجل حين يرى أن الهوية الحق هى تطابق الهوية مع الاختلاف وهو ما يذهب إليه إيف ميشو -

وهو مفكر فرنسى معاصر- من أن سر قوة الهويات المعاصرة يكمن فى تميزها بالتغير وقبول التغير والمرونة بحيث تصبح هويات ديناميكية. وهنا يتداخل المشترك الثقافى مع المشترك السياسى فى إطار الهوية العربية، فقد لاحظ أكثر من مفكر عربى هنا أن التوجه العالمى نحو الديمقراطية هو توجه نحو الأخذ بالتعددية ليس فقط السياسية بل والثقافية أيضا وخصوصا فى الدول متعددة الثقافات والأعراق، فلا ديمقراطية دون تعددية بالمفهوم الواسع للكلمة، ولكن ليس كل تعددية تنتمى لثقافة الديمقراطية وتعززها، الديمقراطية تقوم على أساس التعددية بل والاختلاف فى إطار الوحدة «وعلى ذلك فإذا كانت المبالغة فى توطيد التعددية الثقافية على حساب الوحدة الثقافية تؤدى إلى تفسخ المجتمع وضياع هوية الثقافة الوطنية المتفردة، فإن المبالغة أو المغالاة فى الدفاع عن الوحدة الثقافية برفض كل مصادر التنوع الثقافى تؤدى إلى انغلاق الفكر وتدهور القوى الخلاقة المبدعة وإلى العزلة الثقافية..، مما يؤدى إلى النكوص والتراجع والتدهور».

الهوية إذن بما هى- كما يذهب البعض - ظاهرة اجتماعية ثقافية، تعبر عنها الضرورات السياسية؛ فهى ليست حالة ثابتة بالمطلق، فنوابتها هى متغيرات فى نفس الوقت، هى ثوابت من حيث تميزها جماعة عن أخرى ولكنها متغيرة ومتطورة بتغير وتطور الجماعة وطبيعة علاقاتها مع الجماعات الأخرى عبر التاريخ، سواء كانت علاقات منتصر بمنهزم أو بالعكس. فالهوية : ليست أقنوما ثابتا وجاهزا نهائيا، كما قد يفهم أحيانا، وإنما هى مشروع مفتوح متطور على المستقبل، أى متشابه

مع الواقع والتاريخ. وفضلا عن هذا فهي ليست أحادية البنية، أى لا تتشكل من عنصر واحد لها، هو العنصر الدينى وحده أو الاتنى القومى وحده، أو اللغوى وحده، أو الثقافى الوجدانى والأخلاقى وحده أو المصلحى وحده، أو الخبرة التراثية أو العملية وحدها. وإنما هى حصيلة تفاعل هذه العناصر جميعا».

فإذا كان إعلاء راية الهوية، وطنية كانت أم قومية أم دينية، تفرضه الضرورات أحيانا، وهى ضرورات تعبر عن حالة دفاعية فى مواجهة عدو خارجى، إلا أن الحدود قد تزول ما بين الهوية كضرورة للدفاع عن الذات والهوية كضرورة للحشد والتعبئة لنبذ الآخر وإقصائه أو الاعتداء عليه إن غابت ثقافة التسامح والإيمان بالتعددية «فإذا كان معاصرونا لا يحضون بالتشجيع على الاضطلاع بانتماءاتهم المتعددة، وإذا كانوا غير قادرين على التوفيق بين حاجاتهم للانتماء والانفتاح الصريح والخالى من العقد على الثقافات المختلفة، وإذا كانوا يشعرون بأنهم مرغمون على الاختيار بين الإلغاء الذاتى وإلغاء الآخر، نكون فى طريقنا نحو تشكيل جحافل من المسعورين الدمويين، جحافل من الضالين». ويخلص معلوف للقول «بأن كل منا مؤتمن على إرثين: الأول عمودى يأتيه من أسلافه وتقاليد شعوبه وطائفته الدينية، والثانى أفقى يأتيه من عصره ومعاصريه. ويبدو لى أن الإرث الثانى هو أكثرهما حسما ويكتسب المزيد من الأهمية يوما بعد يوم. ومع ذلك لا تنعكس هذه الحقيقة على إدراكنا لأنفسنا، فنحن لا ننتسب إلى إرثنا الأفقى بل إلى إرثنا الآخر».^(١)

(١) <http://www.palnation.org/vb/showthread.php?t=174>

- <http://akhbar.khayma.com/modules.php?name=News&file=article&sid>

واليوم تتفاقم أزمة الهوية فى العالم الثالث كظاهرة يطلق عليها برتراند بادى، أثنّة العالم ، فالعالم يشهد اليوم حالة لا تخلو من تناقض ظاهري، فمن جانب تتعرض ثوابت الهوية للزعزعة، ومن جهة أخرى تنبثق هويات كان يُعتقد أنها تلاشت، وهويات كانت كامنة وخصوصا فى مجتمعات فقيرة وضعيفة وجدت فى الهوية العرقية أو الدينية الجدار الأخير الذى يحفظ لها كينونتها ويحول دون اندثارها بعد انهيار الأيديولوجيا. اليوم «يجرى إخراج الإنسان من يقينيته وذاتيته وكينونته، وربطه إلى عصر الكونية الذى تذوب فيه كل الخصوصيات». انقلبت إحدى أدوات العولمة ضدا على مسارها، حيث شجعت هذه الأخيرة، المجموعات الاثنية والدينية والقومية على لبس عباءة الديمقراطية. كما أصبح خطاب الهوية القومية يشكل شعارا أيديولوجيا تحتى به الجماعات الاجتماعية المهمشة، وهو الأمر الذى دفع المفكر الفرنسى جان فرانسوا بيار إلى الاعتقاد بأن الهوية بمفهومها العام غير موجودة، إنما الموجود مجموعة من استراتيجيات الهوية التى تحركها نخب فاعلة ومستفيدة، ونعتقد أن هذا رأى لا يخلو من وجهة بالنسبة لحركات قومية متعصبة أو فاشية أو عسكرية تلبس لباس الهوية وتحارب بسيفها، كالنازيين فى ألمانيا الهتلرية والصرب بعد انهيار يوغسلافيا.... ولهذا فالهوية لا تصاغ بقوانين ولا تندثر بقوانين ولكنها كالكهرباء تتغلغل فى حياة البشر وتكمن فى روح القوانين وفى سلوك الناس وتفكيرهم ومشاعرهم وتستمر ما استمر الانتماء والارتباط بوطن خاص بالجماعة^(١).

(١) السابق

وفى حالتنا العربية - كما يلاحظ إبراهيم أبراش - يعتبر تعدد الهويات وتداخلها أمرا يميز العرب عن غيرهم، فمن هوية وطنية أو قومية إلى قومية إلى إسلامية إلى أممية. وإن كان التعدد أمرا إيجابيا إلا أن التربية الحزبية والثقافة السياسية لبعض الأحزاب العقائدية عملت على تشويه الهوية والثقافة، حيث غلبت الأيدولوجيا على الهوية. فالأممية ألغت الوطنية والقومية، والقومية ألغت الوطنية، والإسلاموية ألغت كل شيء حتى العلم الوطنى والنشيد الوطنى. إن أزمة الهوية فى مجتمعاتنا مرتبطة بأزمة الدولة وأزمة الدولة مرتبطة بأزمة الهوية وكلاهما يبرر شرعية طرح السؤال من نحن؟. بالإضافة إلى ما سبق فإن الهوية العربية الإسلامية مشبعة بالأشخاص، فتقديس الأشخاص والرموز أهم من تقديس الأرض والوطن، وتاريخ هويتنا وثقافتنا هو تاريخ أشخاص زعماء وليس تاريخ منجزات أو تاريخ دولة ووطن.

بيد أننا خروجا من الواقع المؤسى - الإمبريالى الغربى - إلى الواقع العربى فى الشرق بكل ويلاته، يمكننا الوصول إلى معنى هذا المشترك الثقافى بيننا هنا - فى الشرق - متصل - ليس منفصلا بالضرورة - بالقيم العربية لتأكيد هويتنا العربية الإسلامية فى الشرق..

□□□

٦ المشترك - الثقافة الدينية

وهو ما يقترب بنا من هذا المشترك فى عالمه الثقافى
وهو ما يقترب بنا من هذا المفهوم - المشترك الدينى - خاصة ما قدم
منه فى جامعة القاهرة تحت اسم «المؤتمر الدولى الأول للمشارك الثقافى» ،
ففيه العديد من هذه الرؤى المهمة . . التى تحدد البدايات - بدايات
العقائد - على أنها هى المشترك الذى يجب أن نتمهل عنده، لكننا
نضيف مع ذلك تحديد البدايات وتأكيد الهوية الخاصة بنا فى الشرق
حين نستعيد هذا المعنى الذى ردد بشكل مباشر أو غير مباشر فى
هذا المؤتمر من قوله تعالى لخاتم أنبيائه ﷺ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾
وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾

النساء: (١٦٣ - ١٦٤)

وقوله تعالى ﷻ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾

البقرة: (١٣٠ - ١٣٢)

وهذا المعنى الذى وإن ردد بشكل عام، فإنه ينصرف إلى هذا المشترك
الثقافى الذى يضيف إليه ويعمقه معنى الهوية الخاصة بنا فى الشرق.

فإذا وضعنا نصب أعيننا المستقبل - لا الماضي وحده - يمكننا أن نستعيد كل هذه القيم الدينية والسياسية والحضارية الدالة على تأكيد هذا المشترك فى نسيج الهوية التى ننتمى إليها جميعا فى الشرق وهو ما يمكن الوصول منه إلى قضية المشترك الدينى.

لقد تعددت صور هذا المشترك ليمثل فيه معنى الهوية التى تحتوى العديد من الهويات والاثنيات .. وهو ما يمكن عنده فهم - على سبيل المثال - معنى المشترك الدينى.

المشترك الدينى هنا يحتوى على العديد من هذه القيم منها ثقافة الحوار فى تعبیر د. محمد خليفة حسن حين رأى أن ثقافة الحوار خاصة ضرورة لكن لكى تنجح « لا بد أن تتوفر له شروط أساسية ومجموعة من الآداب والضوابط. ومن أهم هذه الشروط استقلالية الأديان والثقافات وتأمين عدم خضوعها لتبعية أو هيمنة دين من الأديان أو ثقافة من الثقافات، ويرتبط بالاستقلالية أن يقوم الحوار على أساس من الشورى والديمقراطية تتساوى معها الأديان والثقافات، وتملك جميعا حق التعبير عن نفسها فى ظل السيادة الكاملة وعن طريق ممثليها الشرعيين، وبعيدا عن كل أشكال الضغوط الدينية أو السياسية. ومن شروط نجاح الحوار استمراريته وذلك لاختلاف طبيعة الحوارات الدينية والثقافية عن المفاوضات السياسية أو الاقتصادية التى قد تنتهى بانتهاء المشكلة التى يتم التفاوض عليها. أما قضايا الدين والثقافة فهى قضايا مستمرة فى حياة البشر، والحوار حولها يجب ألا يتوقف. كما أن من شروط الحوار الدينى أو الثقافى أن تتحقق منه الفائدة المرجوة على المستوى الدينى

والثقافى فيرتقى مستوى التفكير، وتتطور المفاهيم الروحية السامية، ويحدث التغيير المرجو فى العلاقات الدينية والثقافية بين الشعوب.

المؤتمر الدولى الأول للمشارك الثقافى «جامعة القاهرة».

وهو ما يعود لتأكيده د. محمد خليفة عبر عدد من الشروط، بما يعود بنا إلى القيم الأولى للأديان، وقد أعطى القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة منظومة لآداب الحوار وضوابطه تتمثل فى الحوار الحسن، والقول الطيب، واللين فى التعامل، والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، والتزام الأدب والبعد عن السباب، وضرورة التواضع، والالتزام بالعدالة والمساواة والمشورة. وقد أعطى النبى عليه الصلاة والسلام من خلال حواراته المتعددة النموذج والقُدوة للمحاور المسلم من حيث الالتزام بآداب الحوار مثل الصدق، والصبر، والحلم والأناة، والرحمة والرفق والمرونة، والتسامح، والدماثة واللفظ، والكياسة والفطنة، وحسن الخلق على وجه العموم، بالإضافة إلى سلاسة القول، والفصاحة والبيان، والكلام الفصل المفهوم (السابق).

ومع أنه يدرك أن الحوار ضرورى فإنه يدرك أكثر مشكلة غياب المحاور المؤهل والمدرب عبر هذا الحوار فيوصى بالابتعاد عن غلبة التمثيل الرسمى والطابع المؤسسى للحوار فضلا عن ضرورة الاتفاق على عدم مناقشة الموضوعات الخلافية، فقد نصت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على قيمة الحوار، متأنيا أكثر عند صعوبة هذا الحوار حين يتحول إلى إشكالية لدى الأقليات بوجه خاص، موضحا فكرته بأن الحوار الخارجى فهو مع غير المسلم الموجود داخل البلاد

الإسلامية فى شكل أقليات دينية أو خارج المجتمع المسلم فى بلاد لا تنتمى إلى الإسلام. وهذا الحوار الخارجى أصبح ضروريا فى العصر الحالى من أجل تصحيح صورة المسلمين التى شهوتها وسائل الإعلام، وصحة التعريف بالإسلام وتقديمه إلى غير المسلمين، ومن أجل منع وقوع الاضطهاد بالأقليات المسلمة فى العالم، ومن أجل التعارف ودعم العلاقات الدينية والثقافية مع الشعوب. وبناء المشترك الإنسانى مع غير المسلم على أسس الأخوة الإنسانية، ووحدة الجنس البشرى، وعلى أساس من الجوار الإنسانى، والاستخلاف فى عمارة الأرض، والتكريم الإلهى لبنى آدم، وأيضا على أسس التعارف والتعاون الإنسانى وأساس المواطنة الإنسانية والانتماء إلى الوطن الواحد والعالم الواحد.

وهو ما يمكن دائرة الحوار من الاتساع والتعمق فى المحيط العالمى، أى الخروج من إطار الاثنيات والعقائد المتباينة إلى إطار أعم وأشمل فى الفضاء الثقافى المشترك مما يغطى مجالات كثيرة مثل مجالات الأديان والثقافات والحضارات، وكل الأنشطة الإنسانية، ومجال القيم الإنسانية العامة، والقضايا الإنسانية المشتركة مثل قضايا الفقر والجهل والمرض، والعنصرية والاستعباد. وهناك أيضا قضايا التنمية البشرية، وعمارة الأرض، ومجال حقوق الإنسان، والأقليات والمرأة، والطفل. فضلا عن أن نظريات الصدام والصراع ونهاية التاريخ وغيرها كما تلاحظ لا تعترف بالمشارك الإنسانى، ولا ترضى بالتعايش، وتوظف الثقافات والحضارات والأديان لإثارة الصراع بين الشعوب، وواد كل وسائل الالتقاء وبناء المشترك.

لقد بدا واضحا للجميع هنا أنه من الضرورى إعادة بناء ثقافة الحوار على المستوى الداخلى والعالمى فى آن واحد «وبخاصة بعد التدهور الذى

أصابها في الغرب» غير أن التمهّل أكثر يكون هنا في الشرق حيث «لابد من تطوير آليات سياسية، وثقافية، وتربوية وتعليمية، ووسائل دينية وإعلامية من أجل بناء ثقافة الحوار» وما إلى ذلك ليمكننا من استيعاب واقع الصراع العالمي مع استيعاب أسباب الخلاف ومن ثم استقطاب عناصر الإيجاب لتأكيد هذه القيمة لدى هذا الإنسان في الشرق الذي أصابه الكثير بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ليس لما يعانيه من الآخر وحسب وإنما - فى المقام الأول- لما يعانيه من الداخل حيث افتقدت هذه القيمة - الحوار- وهو ما يجب معه التنبّه إلى العود إليها هنا لصنع (هوية) أو - بشكل أدق - للعود إلى هذه الهوية الشرقية الخاصة بنا التى تقوم على الكثير من القيم الإيجابية مع الذات ومع الآخر^(١).

(١) لاحظ د. خليفة هنا أن للحوار ثمراته المعروفة. فى مجال الدعوة الإسلامية حيث اعتمد عليه بصفة دائمة كوسيلة تعريف بالإسلام، وأداة توصيل لعقائده ومضامينه بعيدا عن الإكراه الدينى، والحقيقة أنه بدون الحوار لا يمكن تصور نجاح الدعوة. فقد حتمت عقلانية الإسلام من ناحية والإيمان بحق الاختلاف الدينى من ناحية أخرى أن يصبح الحوار وسيلة المسلمين الأولى فى الدعوة. ومن ثمرات الحوار النجاح فى تحسين العلاقات الإسلامية المسيحية وقد تُوِّج هذا النجاح بإصدار إعلان الفاتيكان بتطوير العلاقات المسيحية الإسلامية فى بداية الستينيات من القرن العشرين وتم على أثر ذلك تكوين لجنة الحوار المسيحى الإسلامى، واللجان الأخرى الفرعية التى انبثقت عنها. ومن فوائد هذا الحوار الاعتراف باستقلالية الإسلام من ناحية وبشراكمته فيما سماه الفاتيكان «التراث الإبراهيمى» وقد توسع الحوار بعد ذلك ليضم كل المذاهب المسيحية التى سعت للحوار مع المسلمين من خلال لجان معتمدة للحوار. وقد رمس الحوار فكرة التقاء الثقافات والحضارات وعدم صراعها، وكان له دور مشر فى مواجهة كل نظريات ودعوات الصدام والصراع. وأفاد الحوار داخليا فى التقريب بين السنة والشيعة، وإن كان هذا المجال لا يزال يحتاج إلى جهود إيجابية ومكثفة نحو تحقيق هذا التقريب. وقد أثمر الحوار أيضا عن نجاح الجهود السامية إلى وضع موائيق عالمية للحوار بين الحضارات وحوار الأديان وأصدرت بعض المنظمات الدولية والعالمية بيانات ووثائق فى هذا الخصوص.

وعلى هذا النحو، راح عدد كبير يؤكد على أن الإيمان المشترك بين الأديان يتأسس على «مبدأين رئيسيين يُقَرُّهما الإسلام بوضوح لا لبس فيه : أولهما هو مبدأ « الفطرة الإنسانية » التى فطر الله الناس عليها فى أصل الخلقة حين جَبَلَهُم على الإيمان به والإقرار بربوبيته ؛ وهو ما يكشف عنه قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىٰٓ ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ۞

(الأعراف: ١٧٢-١٧٣)

دون أن يكون ذلك قيда على حرية الاعتقاد التى اقتضتها مشيئة الله - الغنى الحميد - فى خلقه : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٧٤﴾ ۞

(سورة الكهف: ٢٩)

وثانيهما هو وحدة الأصل الإنسانى الذى تسطع به آيات القرآن الكريم فى نحو قوله تعالى - جلَّ شأنه : ﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ مِّنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ۞

(النساء: ١)

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴿١٨﴾ ۞

(الأنعام: ٩٨)

وفى هذا بيان لأصل التسوية والاتفاق لا لأصل التنافر والاختلاف فى المجتمع الإنسانى، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ يونس: (١٩) مؤكداً من آن لآخر على المعنى العام الذى تؤكدُه حقيقة أن وحى الله لا يختلف فى الأولين أو الآخرين سواء فى طبيعة هذه القيم أو الإخلاص لها مؤكداً هذا المعنى فى أمور شتى منها :

- إن الدين واحد وإن اختلفت الشرائع والدين الواحد الذى لا يُقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به الرسل. وهذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات من القرآن بالإيمان وعن أهله بالمؤمنين والذين آمنوا. وفى تفسير محمد عبده لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٦) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ (٧)

التين: (٦-٧)

يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا هم الذين صَدَّقُوا بأصل الخير والشر، واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة، وبأن لأنفسهم وللعالم حاكماً يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب وأن لهم جزاء على أعمالهم.. ثم كان تصديقهم هذا بالغاً من أنفسهم حدّاً أن يملك إرادتهم فلا يعملون إلا ما وافق اعتقاداتهم؛ فهم يعملون الصالحات، وجماعها أن تكون نافعا لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين. ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾؛ الدين هنا هو خلوص السريرة للحق، وقيام النفس بصالح العمل. وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه الأنبياء. وعلى

هذا لا يكون للعبادات البدنية اعتبار في الإسلام بحسب صورها الظاهرة وإنما هي معتبرة بالنيّات والهيئات النفسانية التي هي مصدرها: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ (الحج: ٣٧)، «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (صحيح البخاري). ولن يُضَيِّعَ الله أعمال الصالحين وإن اختلفت شرائعهم، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

وهو ما يصل بنا إلى المعنى العام والأحكام العملية، فالمعنى الذي نزلت فيه الآيات هي في قوله تعالى في حجة الوداع ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

على أن الدين - الذي هو الإسلام - هو التنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع التي كملت في القرآن.

ويأتى بعد هذا الأحكام العملية التي حدد هيئتها العامة د. مصطفى لبيب في أنها تختلف باختلاف الأنبياء والأمم، وقد تتغير بتغير الأوضاع، ولم تكن كملت عند نزول الآية. والإسلام - الذي هو الإيمان بالأصول الدينية التي هي حقائق خالدة لا يدخلها النسخ ولا يختلف فيها الأنبياء - هو الدين الذي لا دين غيره عند الله، إنه التوحيد وإسلام الوجه لله.

إن المعنى الذى يؤكدُه الباحث هنا هو إعادة تأكيد الحقيقة التى جاءت بها الأديان من تأكيد الفطرة الإنسانية وتأكيد عوامل التغيير وشروطها ليصل إلى حقيقة مؤكدة لدى من يدرس الأديان من هذه الوحدة المشتركة لأصول الديانات وتجاوز الاختلافات بينها ليؤكد - مع غيره - أن المشترك الثقافى الذى يستمد خيوطه الأولى من الديانات السماوية إنما يؤكد على هذه الوحدة المشتركة لأصول هذه الديانات، ومن ثم، تأكيد الهوية الشرقية لنا إذا أردنا أن تكون لنا هوية واحدة تعبر عن الواقع وتجاوزه فى وعى شمولى واحد^(١).

وهو المعنى الذى أكدّه عدد كبير من المشاركين فى هذا المؤتمر من شتى أنحاء العالم فى التأكيد على نفس اللحن مع تغيير الإيقاعات

(١) ويبلغ تمثّل هذه الوحدة المشتركة لأصول الديانات وتجاوز الاختلافات بينها غايته فى نظرية الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى (ت: ٦٣٨ هـ) الشهيرة عن «وحدة الأديان» - والتى عبّر عنها بقوله :-

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه داني
لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى
ولا ريب أن نظرية ابن عربى هذه تُعدّ تطويراً لنظرية الحلاج - الصوفى الشهيد
(ت: ٣٠٩ هـ) - والتى سبق أن عبّر عنها بقوله :

تفكرت فى الأديان جد محقق فألفيتها أصلاً له شعباً جماً
فلا تطيبن للمرء دنيا فإنه صدّ عن الأصل الوثيق وإنما
يطالبه أصل يُعبّر عنده جميع المعالى والمعانى فيفهما

وجدير بالذكر استباق الحضارة الإسلامية إلى طرح هذا المفهوم الجوهرى لوحدة الأصل الدينى المشترك بين البشر.

والترددات بين كون الأديان - التى تعود إلى مؤثر واحد- مكون أساسى للثقافة إلى الصعود لآفاق كثيرة لتأكيد هذا المعنى فى التصوف والتجربة الصوفية على سبيل المثال، وهو ما تعددت فيه التفسيرات عند كرستيان أن نسبن وجوزيبى سكاتولين وإيلينا بياجى وثابت عيد، وغيرهم.. وهو هو المعنى الذى شهدنا معه - مع تطور نسيج المشترك الثقافى واتساعه - على منظور آخر، ونقصد به المشترك السياسى وهو ما نتمهل عنده أيضا.

□□□

٧) المشترك - الثقافة السياسية

رأينا كيف أن المشترك الثقافي يمر بهذا التعريف البديهي من تأكيد نسيج الهوية في المحيط العام؛ ومن ثم، فإن الوصول إلى الهوية العالمية يكون مرهونا بالوعى بالهوية الخاصة، وهى هوية ترتبط هنا بالرموز الثقافية القائمة على الوعى الإسلامى، فقد تحولت الثقافة الخاصة بنا إلى هذه الثقافة المستقاة من تقاليد الثقافة الإسلامية ورموزها العديدة، وهى التقاليد التى تعرف الثقافة السياسية ورموزها فى الغرب اليوم. ليس البحث عن عناصر هذه الهوية فى الفكر الغربى إلا محاولة تأكيد الرموز الإسلامية وثقافة العقيدة فى الثقافة المعاصرة ..

وهو ما وصلت فيه اجتهادات معاصرة إلى مبنى مشابه فى المجال السياسى فى أن المشترك الثقافى يظل تابعا دالا على - ومن - المشترك السياسى.

وهو ما يفسر كيف أن أغلب من حاول رصد المشترك السياسى فى هذا الاتجاه كان واعيا لهذا المفهوم - فالهوية الشرقية لا تتحدد إلا فى إطار الفكر العالمى الذى يقوم على هذا الوعى السياسى الذى لا نصطدم به وإنما نجده - فى أطروحاته السياسية - متجانسا مع فكر الثقافة الإسلامية.

وهو ما يفسر هذا التحول الذى أشار فيه المشترك السياسى إلى ضرورة اتخاذ شكل مؤسسياً يقوم على قيم الفكر السياسى (الديمقراطية) ..وهى القيمة التى تساوى الفكر السياسى (الشورى) هنا.

إن الانتقال من الخاص إلى العام يصل بنا إلى هذا الفهم لدى بطرس غالى، حين يلاحظ منذ البداية أن التواصل إلى المشترك الثقافى يمر بضرورة الوعى بالحاجة إلى «وجود هيكل يأخذ شكلاً مؤسسياً»، وهو يخرج من الإيجاز إلى التفسير أكثر حين يضيف أن ذلك يمضى فى تحديين : التحول نحو الديمقراطية فى الأمم المتحدة أولاً كخطوة أولى والتحول الديمقراطى للدولة كخطوة ثانية يُمثّلان مطلباً أساسياً لهيكل «برنامج المشترك الثقافى».

أما التحدى الآخر يتمثل فى تحقيق ثقافة الديمقراطية على المستوى الدولى.

ولا يقتضى ذلك فقط مجتمعا من الدول الملتزمة بمبادئ الديمقراطية وعملياتها -كما يتردد- بل يحتاج أيضاً إلى مجتمع مدنى دولى موسع يشترك بشكل كبير مع مؤسسات دولية أو بين الدول أو مؤسسات خاصة أو حكومية أو غير حكومية. ولكن يجب أن تلتزم هذه المؤسسات بالممارسات والإجراءات الديمقراطية والتعددية السياسية^(١).

وحين نمضى فى المساحة البعيدة لهذا المحيط الذى يشير إليه، فإننا نلاحظ أنه يعود من آن لآخر إلى ضرورة المشاركة فى المؤتمرات الدولية، وفى الوقت نفسه نلاحظ ما ينبجم عنه أن «تتطور قنوات جديدة من

(١) (المؤتمر الدولى، السابق)

التعبير السياسى والأنشطة للأفراد خارج الهياكل الحكومية بل وداخل المجال الشعبى ، عندما تُعتبر خارج نطاق الحكومة» (السابق).

وعلى هذا النحو، فإن الطريقة الأكثر فاعلية هنا للوصول إلى باب المشترك الثقافى لابد وأن تمر بالمشارك السياسى الذى يتمثل فى ضرورة «التحول نحو ديمقراطية الهياكل والآليات الموجودة بالفعل»، وهو ما يعنى أن نضع فى الاعتبار ليس القضايا السياسية والسلوك الاقتصادى فقط وإنما الطموحات الاجتماعية والثقافية.

وهو ما يصل بنا إلى تأكيد أنه للوصول إلى الوعى الفردى لابد من المرور إلى المؤسسات الدولية وحالات التحول الديمقراطى على جميع المستويات. فليست هناك فجوة قط بين التنوع الإنسانى العالمى أو الذاتى.

وليس هناك خصام بين الهوية الشرقية فى إطار الهوية العالمية بأية حال، وهو أهم الشروط للدخول فى هذا العصر، حيث يواجه الواقع العربى أو الشرقى بهويته المميزة بهذا التحدى الذى يسعى إلى الانفصال عن العالم، وهو ما تنبه إليه آخر حين يؤكد سياسى ودبلوماسى مثل د. محمد شعبان حين لاحظ بعد رصد هذه التغييرات التى حدثت فى المنطقة - فى إطار العالم - خاصة بعد ١١ سبتمبر من أهمها حتمية الحوار مع الآخر وفى الوقت نفسه الانطلاق من الذات إلى العالم وانطلاق من العالم إلى الذات فى دائرة ضرورة الوعى بحركة الاتصال بين الثقافات من خلال ثورة المعلومات التكنولوجية، وهو يحدد هذا أكثر حيث «أصبحت الديمقراطية والتعددية و الحرية واحترام حقوق الإنسان من مفردات لغة العولمة التى تحدد الموضوعات الأساسية للحوار بين الثقافات والحضارات،

فالديمقراطية مطلب هام للشعوب فى جميع دول العالم، لأنها تساهم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول، فالعلاقة بين تفعيل وإرساء مبادئ الديمقراطية على المستوى الدولى و حمايتها على المستوى العالمى علاقة وثيقة (المؤتمر - أحمد أبو الغيط)^(١).

وهو ما يعود بنا إلى أهمية تأكيد قيمة الديمقراطية كأحد رموز المشترك السياسى.

و حين تؤكد الحقيقة التى يجب التنبيه إليها هنا من أن قيمة الديمقراطية، التى هى قيمة سياسية مهمة، لا يجب أن تحدث بمعزل عن الخارج، وهو ما يؤكد هـنا أحمد أبو الغيط من أنه « إذا كانت الديمقراطية هى السبيل الأمثل لشرعية الحكومات فإن حمايتها على المستوى العالمى يعطى دفعة للجهود المبذولة دوليا فى هذا المجال. فالكثير من القرارات المتعلقة بالعلاقات الدولية تؤثر بشكل كبير على المستوى الداخلى للدول. وهناك العديد من الموضوعات التى لا تستطيع دولة بمفردها ومجموعة دول مجتمعة أن تواجهها بمعزل عن الآخرين. ولذلك تؤمن مصر بأن الجهود الرامية إلى حماية الديمقراطية على المستوى الدولى يجب أن تتوازى مع محاولات خلق أسس قوية للديمقراطية على مستوى العالم. هذا الهدف يتطلب إنهاء جميع الخلافات المسلحة، وحل الأزمات الإقليمية و التوصل إلى الحلول المناسبة مع اعتبار احترام الشرعية الدولية و تخفيف المشاكل الناجمة عن العولة وبناء نظام عالمى قوامه المساواة و العدل، و التأكيد على المشاركة الفعالة للدول النامية فى اتخاذ القرار على المستوى الدولى»^(٢).

(١) السابق.

(٢) السابق.

وهو ما يؤكد هذه الحالة (العضوية) بين الذات والخارج بين الهوية القومية والهوية العالمية.

وبقدر ما يحمل هذا لدينا من جهل بالآخر، فإنه يحمل - بالتبعية - جهلا من الآخر بنا، من صنع جهات معادية لقيمة الإرهاب التي ترتبط بنا وتتخذ أقنعة عامة من مصطلحات من مثل «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» والإرهاب الذى نسمع عنه عالميا سواء فى بلادنا فى الشرق أو بين الجاليات المسلمة فى الغرب وإعلاء صيغة غريبة - فى الحوار ضدنا - من العنصرية وكراهية الأجانب و«فوبيا الإسلام» وما إلى غير ذلك مما يضعنا فى حيرة شديدة أمام الدعوات والمبادرات التى تدفع بنا دفعا إلى تناول قضايا مثل قضايا الحوار بين الثقافات مما يدفع بنا لا إلى الدعوة إلى الحوار مع الآخر فقط، وإنما - فى المقام الأول - الحوار مع الذات.

فالبحث عن الهوية الشرقية الخالصة الخاصة بنا لابد أن يبدأ من الذات قبل أن يعاود الحضور من الآخر إلى الذات بوجوه مختلفة. وهو ما يشير فى السياق الأخير إلى ضرورة التنبيه إلى أن الهوية العربية ليست مغايرة لما يحدث وإنما يجب أن تكون واعية لعدد من التيارات والأحداث حولنا، ليس فى البحث عن القيم الثقافية بيننا وبين الغرب وحسب وإنما القيم السياسية أيضا.

وهو ما يلفت نظرنا مع سياسى آخر مثل السفير نبيل فهمى حين يلاحظ أن المشترك السياسى إنما يساوى «دعوة إلى هوية عالمية».

وعلى هذا النحو، يعبر بنا إلى عديد من الصور والرموز المعاصرة: من نظام عالمى متعدد الأقطاب إلى نظام عالمى ثنائى القطبين والحرب الباردة

ليصل بنا - بعد المرور من موجة العولمة - إلى التأكيد على عناصر الهوية العالمية. هي العناصر التي تؤكد بديهيات أن الهوية الشرقية هنا لا تنفصل عن الهوية العالمية بأية حال.

وهو ما يعود إلى طبيعة الاتصال المؤكد بين رموز المشترك الثقافي والمشارك السياسى فى هذه «الهوية العالمية» عبر العديد من الملاحظات والمراحل.

إن الوصول إلى الهوية العالمية يعنى : الهوية العالمية لاتعنى أبدا تمزيق النظام الحالى بل نبذ فكرة حتمية صراع الحضارات، والتنبه إلى أننا نعيش فى عالم تتوافر فيه ٨٠ ٪ من ثرواته فى ٣٠ ٪ من سكانه كما أن الصراع بين الشعوب الإسلامية والصهيونية يجب أن يصاغ فى «توازن المصالح» لا «توازن القوى»، وهو ما يصل بنا إلى حقيقة مهمة هى أنه لابد لعالم يتمتع «بالهوية العالمية» أن يدعم ويحرص على حقوق الأفراد كما لابد للشعوب من أن تمتلك الحق فى تقرير مصائرهما اعتمادا على معايير مشتركة من المساواة والعدل والتعددية التى يتم تفعيلها بأسلوب يستجيب لاحتياجات وتقاليد كل مجتمع ، حيث يمكن من خلال التربية والتعليم والحوار والتسامح والتفاعل أن نوحّد جهودنا لمواجهة التحديات من خلال «الهوية العالمية» التى تطور وتؤمن بمعايير مشتركة وتحترم هويتنا الفردية أو اختلافاتنا الثقافية ، وبهذا الصدد لابد وأن يكون هناك دائما أطروحات عالمية قد يعارضها القليل من الناس مثل إعطاء السلطة للشعب ، والحكومة الصالحة والتعددية وسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان، ولكن على الجانب الآخر، فإن طريقة التعبير

عن مثل هذه المبادئ والأفكار سوف تتنوع حتما من بلد لآخر، وهذا يعنى أنه بينما يجب أن تكون كل تلك الأفكار عالمية ومشاركة، إلا إنها لابد أيضا أن تصطبغ بصبغة محلية لتعبر بحق عن احتياجات وآمال المجتمع الذى من المفترض أن تحكمه تلك القيم والأفكار، وهذا لابد وأن يحدث بسرعة وحسم»^(١).

وعلى هذا النحو، فإن ذلك يعود دائما من الذات إلى الآخر قبل أن نعود من الداخل إلى الخارج فى إعادة صنع منظومة جديدة حيث - كما يؤكد الشاهد السياسى - إننا نحن على أعتاب حقبة تحمل لنا آمالا عريضة فى عالم أفضل وتحقيق هذا الأمل يتطلب منا أن ننظر «أفرادا وجماعات» إلى الكثير من أفكارنا وقيمنا الموروثة لنراجعها بعقل متفتح، وهو ما يعود بنا من جديد من الهوية الشرقية إلى جادة الهوية العالمية» (السابق).

وهو ما يعيد ترجمة المعنى العضوى بين الثقافى والسياسى إلى منظومة المشترك. وهو ما يدفعنا - من جديد - إلى استدعاء المفاهيم الغربية قبل أن نعود إلى الخبر الأخير: المشترك.

فلنقترب من هذه المفاهيم - الصهيونية أو الإمبريالية المعاصرة.



(١) السابق.